

الاول ، وفي مقدمة كتاب المؤلف الثاني .

ج.م.ع.

رسالة القاهرة من سامي خشبة

● مرة أخرى عن الفلسفة العلمية والبحث عن حقيقة التاريخ العربي :

حينما كتبت رسالة القاهرة للعدد الماضي من الاداب (عدد يوليو ١٩٧٤) عن « البحث عن حقيقة التاريخ العربي والفلسفة العلمية » ، لم تكن الفرصة قد اتاحت لي بعد للاطلاع على العدد الاول من مجلة « قضايا عربية » وبالذات لقراءة مقال الاستاذ محمد عمارة عن « الوعي بالتاريخ والمستقبل العربي » في ذلك العدد (١) ، ولا على كتاب « قضايا في التاريخ الاسلامي ، منهج وتطبيق » للدكتور محمود اسماعيل (٢) .

في رسالتنا المذكورة ، كانت القضية التي اردنا اثارها ، من خلال التعليق على ما اسميناه « الهوجة » البديهة وغير الموضوعية في مجلة « الثقافة » وجريدة « الاخبار » القاهريتين ضد كتب « المعتزلة ومشكلة الحرية الانسانية » لمحمد عمارة « اليمين واليسار في الاسلام » لاحمد عباس صالح ، « الحركات السرية في الاسلام » لمحمود اسماعيل ، كانت قضيتنا الاساسية هي ان هؤلاء المؤلفين ، على اختلاف موضوعاتهم ، ووحدة المنهج المادي التاريخي التي تجمع بينهم (بدرجات متفاوتة من شمول النظرة والحرص العلمي في التعامل مع المادة التاريخية وعمق تطبيق المنهج نفسه) تهدمهم مشكلة غريبة ، تكاد ان تكون من المشاكل الخاصة التي يتميز بها التاريخ العربي ، والتي لا بد ان يواجهها مؤرخ الحضارة الاسلامية والعربية ، قبل الاسلام او بعده : مشكلة الحصول على « الحقائق » التاريخية ، وتحديد « ماهية » الحقائق وسياقاتها ومواضعها من البنيان الاجتماعي والثقافي الذي افرزها ، قبل الدخول في عملية تفسيرها . وقلت ان معرفة « حقائق » التاريخ في البداية ، اكثر فائدة بكثير من اعادة تفسير خليط الحقائق والاهوام على ضوء الفلسفة العلمية . واضفت : « ففي هذا التفسير يسهل ان تسقط الفلسفة العلمية في نفس الشراك التي دفع فيها طه حسين (اشارة الى اكتشافه بالتحليل العقلي والتشكيك المنطقي في ما تواتر من عصرنا قبل الاسلام من الشعر ، في كتاب « في الشعر الجاهلي » دون اقامته منهجه على الحقائق التاريخية والتحليل الفلسفي العلمي لها) ... ذلك ان معرفة حقائق التاريخ ، ومعرفة حقائق اية ظاهرة في كون المادة والحركة هذا ، هي المقدمة المنطقية الضرورية ، والتي لا غنى عنها لبناء فلسفة علمية مرتبطة بواقع هذه الحقائق وحركتها ... » ولم اكن اشعر بالطبع ، ان هذه الكلمات ، كادت تكون موقفا مناقضا لما قاله الزميلان ، محمد عمارة ومحمود اسماعيل ، في مقال الكاتب

(١) قضايا عربية ، العدد الاول ، نيسان ١٩٧٤ ، ص ٩٥ -

(٢) دار العودة ومكتبة مدبولي ، بيروت والقاهرة ، ١٩٧٤ .

يتخذ محمد عمارة الموقف المتطرف ، او موقف الطرف المقابل بشكل كامل في تأكيده على ان المسألة الاساسية في عملية اعادة « كتابة » التاريخ العربي ، القومي منه والوطني ، هي مسألة « المنهج » . يقول :

« ذلك ان القضية ليست مجرد اعادة صياغة احداث التاريخ ووقائعها وتبويبها بأسلوب عصري وفي اطار حديث ، وعلى ورق ابيض ، بدلا من الاصفر !! ولا هي مجرد تخلص كتب الاقدمين من «العنقبات» التي كانت طابعا لتدوين عصرهم ، ولا هي حتى مجرد « تحقيق الروايات المتعارضة والمتفاوتة والمختلفة حول الحدث الواحد ، ولا هي مجرد اعادة التجميع والتركيب لركام الاحداث التاريخية كي تتحول الى كيان حي مؤنث ومقبول من انسان القرن العشرين ... ليست القضية شيئا من ذلك ، ولا هي كل ذلك .. وانما هي بالدرجة الاولى قضية المنهج ... باي منهج نريد نحن ان نعيد النظر ونقرأ من جديد صفحات التاريخ ؟ .. لانه سيتربط على قضية المنهج هذه « مسددا » الاستفادة والفعل الذي يستطيع تاريخنا ان يقدمه لحاضرنا ومستقبلنا وايضا « نوعية » الافادة والفعل التي سيقدمها هذا التاريخ .. » (٣)

اما الدكتور محمود اسماعيل ، فيبدو من كلماته طبع المؤرخ « المحترف » ، الذي تواجهه بالفعل مشكلة ضياع الجانب الاعظم من وثائق التاريخ العربي والاسلامي وسجلاته الاصلية (المعاهدات والوثائق وعقود البيع والشراء والزواج والقبايضة والمعاملات المالية والمراسلات الشخصية والاعترافات .. الخ) بالاضافة الى انعدام النعوش ذات الطابع التسجيلي الشخصي ، او غير الشخصي ، بالاضافة الى ما طرأ على « صورة الحقيقة » في كتب المؤرخين من تبديل وتحريف وتهويل ووقوع في قبضة الاساطير والميل الى خلط الحقائق بالخرافات واخضاع الحقائق للاهواء واليول المذهبية بل والعداوات او الصداقات الشخصية .. الخ .. الخ . وتبدو على كلمات محمود اسماعيل من جانب اخر ، الرغبة في تحقيق قدر اكبر من الشمولية للمنهج العلمي ، تجعله وان وقف على اساس من التفسير الطبقي للحركة التاريخية ، فانه لا يهمل الدوافع المحركة الاخرى للظاهرة التاريخية ككل ، خاصة في عصور كانت الدوافع الابدولوجية والدينية فيها ذات تأثير لا يقاوم . ولذلك فان محمود اسماعيل ، يطرح مسألته باعتبارها مسألة « انشاء علم للتاريخ الاسلامي » تقريبا ، رغم انه يسميها « قضية التفسير » . يقول !

« ... وهذا يقودنا الى مساواة منهجية اخرى وهي قضية التفسير . فالواقع ان التاريخ الاسلامي بصورته التقليدية والانيسة (يقصد الحالية) مجرد عرض وسرد للاحداث والوقائع ، وتبدو الظواهر التاريخية كما لو كانت خلفت عن فراغ ، ولذا يجب الاهتمام بالبحث في الاسباب والعلل الكامنة وراء هذه الظواهر ومعرفة قوانين نشوتها وتطورها ، والوصول في النهاية الى رؤية شاملة للمسار العام لحركة التاريخ الاسلامي ، وهذا لن يتسنى الا بعد

(٣) قضايا عربية ، محمد عمارة ، الوعي بالتاريخ والمستقبل العربي ، ص ٩٩ .

ومن المؤكد ان هؤلاء سيكونون بالضرورة موضوعيين ، على قدر أو اخر من المنهجية العلمية الموضوعية ، بصرف النظر عن ماديتهم أو اقتناعهم بالمادية التاريخية . هذا لاننا نعرف ان « المتسلحين بالمادية التاريخية » لقادرين في نفس الوقت على انشاء علم للتاريخ الاسلامي لا يتجاوز عندهم اصابع الديدن في مصر (واخشى ان افول في الوطن العربي كله) ولنضرب لذلك مثلا ، وليكن مثلنا الاول هو الاستاذ محمد عمارة نفسه .

في ذات المقال القيم من مجلة « قضايا عربية » ، يقع الاستاذ عمارة في ورطتين ، الاولى ذات طابع سياسي كان ينبغي ان يتعالى عليها ، وان يعامل ما دفعه اليها (او من دفعه اليها) بما يستحقه من لا مبالاة أو تجاهل . واقتصد بذلك ، رغبة الاستاذ عمارة في اثبات ان المؤرخين العرب والمسلمين ، قد عرفوا اهمية العوامل الاقتصادية في تفسير التاريخ . والمفهوم ان الاستاذ عمارة يرد بذلك في طيبة حقيقية على تلك البذاءات التي اشرنا اليها والتي نشرت في مجلة الثقافة بالقاهرة ، والتي تتحدث عن « مركسة » التاريخ الاسلامي .. الخ ... ولكن المشكلة من الناحية الفلسفية اولا ، هي ان الاسكافي ، ابو جعفر محمد بن عبدالله ، الذي استند اليه الاستاذ عمارة ، باعتباره صاحب « التحليل الاقتصادي » للصراع بين علي ابن ابي طالب والصحابة من وجهاء قريش وبني امية وبني مروان ، القول ان الاسكافي ، الامام المعتزلي على قول الاستاذ عمارة ، لا يمكن ان يكون من المؤمنين بالمنهج الاجتماعي لتفسير التاريخ . ربما قال الرجل هذا التحليل (وانا اظن انه لم يقله) ، وليس في هذا ما يدل على انه كان .. « هذا التحليل انما يمثل رؤية تاريخية ومنهجية في كتابة التاريخ يعد بمثابة الجذور الاصلية - في تراثنا العربي والاسلامي - كما نسميه اليوم بالمدرسة الاجتماعية او العلمية او المادية في كتابة التاريخ » . (٧)

لا نظن ان الاسكافي كان صاحب رؤية تاريخية « تمثّل جذورا للمادية التاريخية ، ذلك ان المادية التاريخية لها جذور من نوع مختلف يعرفها الاستاذ عمارة ، ونعرفها نحن ونؤمن بها ، واذا شاء القارئ - ان لم يكن يعرفها - بحث عنها في مظانها فهي كثيرة معروفة .

وانما نظن ان هذه الحكاية قد نسبت الى الاسكافي ونحلت له ، من جانب ابن ابي الحديد ، صاحب « شرح نهج البلاغة » ، الذي لم ترد هذه الحكاية منسوبة الى الاسكافي الا عنده ، والمعروف ان ابن ابي الحديد كان شيعيا متمصبا ، وكان يشرح كتاب « نهج البلاغة » المنسوب الى علي بن ابي طالب ، بينما يجمع جهرة المحققين والدارسين ، المسلمين وغيرهم ، على ان هذا الكتاب ما كان يمكن ان يمليه او ان يؤلفه ابن ابي طالب (والا رجح ان مؤلفه هو الشريف الرضي ، الامام الشيعي في بداية العصر العباسي الثاني ، والشاعر العظيم والمثقف العارف باليونانية والفارسية) لان « نهج البلاغة » يضم الكثير من الافكار الفلسفية ، والتصورات ، ويستخدم تراكيب لغوية لم يعرفها العقل العربي الا بعد انهيار النولة الاموية وانتشار الترجمة واتصال العقلية العربية بالثقافتين اليونانية والفارسية اتصالا وثيقا . والمرجح ان « نهج البلاغة » انما كتبه الشيعة في عصر متأخر ، بهدف اثبات عدة اشياء عن الامام الاعظم ، اهمها حسن بلائه ، وحكمته ، وشجاعته ، وفصاحته ، واحقيقته بالامامة ، وعظمته قدرته على الفهم ، وانه كان ضحية لمؤامرة حسيسة ، حاكها وجهاء قريش وبني امية وبني مروان ، او انه كان ضحية لاناس بلغوا درجة

اما عند محمد عمارة ، فاننا لا نواجه مسألة انشاء هذا العلم للتاريخ الاسلامي ، وهو العلم الذي لم يكده ينشأ حقا حتى الان باستثناء عدد محدود للغاية من الاعمال القيمة ، وانما نواجه محاولة صريحة لوضع التاريخ في خدمة وجهة نظر سياسية محددة ، تقدمية وثورية ، نعم ، ولكنها في النهاية - فيما نزع - لن تؤدي حقا الى تحقيق « الاستفادة والفعل » من عملية اعادة القراءة والنظر الجديد في صفحات التاريخ اذا ما وضعت كشرط مسبق لهذه العملية . فمحمد عمارة يرى ان المستقلين من هذه الامة يريدوننا ان نقرأ تاريخنا بحيث يرسخ في وعينا ان الكادحين لا يرسمون مسار الحاضر والمستقبل ، وشاهددهم على ذلك التاريخ نفسه ، فقد كتب التاريخ بحيث يثبت ان الكادحين لم يلعبوا هذا الدور في يوم من الايام .. « ولذلك فهم (اي المستقلون) يرفعون شعاراتهم التي تقول ان التاريخ لا يحسم صراعه ولا يحدد مساره العوامل المادية والصراعات الطبقي والاجتماعية والظروف الاقتصادية » وانما هي ثمرات لمعجزات الابطال او الافراد الافذاذ الذين لا صلة تربطهم بالقواعد المادية والاجتماعية لمجتمعاتهم .. « وهم ايضا يسعون الى تقليص الحجم والفعالية لعملية «الوعي» لدى عامة الشعب ومثقفيه ، ومن ثم فانهم حريصون على استبعاد المنهج الذي يتناول الاشياء والظواهر - وكذلك التاريخ - في تربطها ونموها وحركتها ... » . (٥)

والمشكلة التي يطرحها الزميلان ، تتخذ وجوها متعددة :

عند محمود اسماعيل ، لن تتبين ماهية « المنهج » الذي يقصده ، حتى تفوس في كتابه ، وحتى تصل بالذات الى دراسته الممتازة عن « تراجيديا التحكيم وموقف الخوارج » حيث تمكن الكاتب من تحقيق شمولية منهجه ، لا تقصد الشمولية في حد ذاته ، وانما لما تتيقن منه ، من خلال « المعلومات » او « كمية المعرفة » المحققة المقارنة المنقودة المستخلصة من « ركام الاحداث » ، من ان تفسير هذه الحقائق على هذا النحو وحده هو الذي يعطيها معناها الحقيقي ، وان اغفال المنصر القلبي ، او المنصر الديني ، او المنصر الاقتصادي الخالص ، او المنصر الفردي في بعض الاحيان ، ما كان يمكن ان يؤدي الى فهم متكامل للظاهرة ولا للحادثة ولا لسلسلة الظواهر والاحداث التي سبقتها والتي تبعتها من بعد .

قد يكون هذا الوضوح في « التطبيق » راجعا الى ما يتمتع به محمود اسماعيل من طابع « المؤرخ المعترف » ، الباحث اساسا عن « الحقائق » لكي يعرف « الحقيقة » اكثر من السياسي الذي يريد ان يثبت وجهة نظر خاصة معينة ، مهما كان من تقديمتها وثورتها فليس من حق « الباحث عن الحقيقة » ان يقترض مسبقا ان وجهة نظره وحدها هي وجهة النظر الوحيدة التي تساهم في فهم الحاضر ، بصرف النظر عن فهم التاريخ .

ببساطة نحن نعتقد ان التاريخ الاسلامي والعربي ما زال بحاجة الى ان ينشأ له « علم » خاص به . ونعتقد ببساطة اكثر ، ان انشاء هذا « العلم » يحتاج الى « جلة العلماء » الذين سخر منهم ، او من فكرة الاستعانة بهم لاعادة كتابة تاريخنا الاسلامي ، الاستاذ محمد عمارة ، (٦) اي انه يحتاج الى « علماء » ، باحثين اساسا عن الحقيقة التاريخية ، مديرين جيدا على البحث عنها واستخلاصها ،

(٤) محمود اسماعيل ، قضايا في التاريخ الاسلامي ص ١٠ .

(٥) محمد عمارة ، الوعي بالتاريخ والمستقبل العربي ، قضايا عربية ص ٩٩ .

(٦) المصدر السابق ص ١٠٠ .

(٧) المصدر نفسه ص ١٠٢ .

كبيرة من الخسة والانانية وحب المال . وهذا ببساطة هو مفرى القصة التي يرويها ابن ابي الحديد ، والذي ينسبها الى ابي جعفر محمد ابن عبدالله الاسكافي ، لشيء يجعل الامام المعتزلي شاهدا على خسة خصوم علي ولؤمهم واشتياهم الدنيا والمال والمناصب . وفي النص الذي اوردته ابن ابي الحديد ما يوحي بتزييفه . فليس من المعقول ان يقول علي عن عثمان في اول خطبة له بعد ولايته : « فعمل ما انكرتم وعرفتم ، ثم حصر وقتل ، ثم جثموني طائعين ... » فكانما يعلن على الملا شماتته في الخليفة القتول ، ورضاء عن قتله وعن من قتله واعتباره قتله قصاصا له جزاء لما « انكرتم وعرفتم » . . . وليس من المعقول ان يقول بعض الناس عن معاوية انه « عدو » علي في اليوم التالي او الثالث لبيعة علي في المدينة ، ذلك ان هذه العداوة لم تعلن الا بعد رفض معاوية مبايعة علي الا اذا اسلمه قتلة عثمان او اقام عليهم الحد . . . وقد تكون - على العموم - على خطأ . فلست بالمؤرخ المحترف . وانما اردت ان اقول ان « تحقيق » الوثائق ، ومقارنة بعضها ببعض ، بهدف الوصول الى « حقيقة » ثابتة ، لن تمدنا فقط بالحقيقة ، وانما ستمدنا اساسا بسند حقيقي لاقامة التفسير العلمي للتاريخ ، الذي يجعلنا نكتشف ان التاريخ من صنع البشر الخاصين بدرجة ما لقانون خارج عن ارادتهم ، والقادرين بدرجة اخرى على اخضاع هذا القانون ذاته لارادتهم نفسها بان « يعرفوا » الحقائق ، والقانون ، واسلوب التحكم فيه جميعا . و اردت ان اقول ان الشروع في اعادة كتابة التاريخ الاسلامي ، لا بهدف « اقامة علم » لهذا التاريخ ، وانما بهدف « اثبات » ان الكادحين هم الذين حركوه ، وان بعض الفقهاء او المؤرخين غير العلميين في نظرهم العامة للتاريخ قد فسروا بعض الاحداث على ضوء العوامل الاقتصادية ، فانما سنعرض انفسنا للوقوع في نفس اخطاء تلك الفرق التي لوى مؤرخوها وفقهاؤها اعناق التاريخ لكي يتفقوا بما لم يكن بوسعهم ان يهمس به ، ولا يجاربه على الافصاح عن نظراتهم او اهوائهم هم . وقد كان لهؤلاء الفقهاء عفرهم ، ذلك انهم لم يكونوا واثقين من ان « الحقيقة » يمكن ان تغف في صفهم . اما نحن فنعرف مثلما قال لينين ان الحقيقة يسارية وعلمية . وان العثور عليها ، وتسييل الضوء على قسماتها وعلى ما يربطها بالحقائق الاخرى ، هو في حد ذاته اقامة العلم ، وهدم العرافة ، وانتصار النهج العلمي . علينا ان نثق بان الحقيقة بالفعل تغف في صفنا ، واننا دون ان « نعرفها » فلن نستطيع ان نقيم فلسفة علمية ، ودون ان ننشرها بين الناس ، فلن يؤمن بالفلسفة العلمية احد ، ولا بتجليلاتها مهما كانت صائبة . فالوعي ، كما نعرف من تاريخ العلم والفلسفة ، وكما تعلمنا نظرية المعرفة العلمية ، مرتبة تالية للمعرفة ومترتبة عليها ، لا على غيرها .

بينما نعتقد نحن ذلك (A) يقرر الزميلان ان « القضية هي المنهج » (بالدرجة الاولى) بتعبير محمد عمارة ، و « يخيل الي ان ازمة الفكر العربي المعاصر هي بالدرجة الاولى ازمة منهج . » بتعبير محمود اسماعيل في السطر الاول من مقدمة كتابه « قضايا في التاريخ الاسلامي » .

وكما قلت من قبل ، ان طابع المؤرخ المحترف عند محمود اسماعيل ، الذي يواجه في بحثه - ويعترف بوضوح انه يواجه مشكلة ندره « السجلات والوثائق » التاريخية الاصلية (ولذلك فانه يسمى الى التثبت من صحة ما قد يرد في كتب التاريخ واللغة والطبقات الى نقدها ومقارنتها بالروايات الاخرى وكشف ملامحها) وضع الرواية التي بين يديه - فلا يعتمد مثلا على ما ورد في نهج البلاغة او في شرحه لكي يشبث ما سعى المؤلف الشيصي الى اثباته كما فعل محمد عمارة : « على المؤرخ المحترف هنا - العلمي والموضوعي . . ان يشك على الاقل في احتمال صحة هذه الرواية) - الفصول ان محمود اسماعيل بطابع المؤرخ المحترف ، متمرجا بطابع المؤرخ الملتزم بالرؤية العلمية للتاريخ ، يعود فيقول بعد ذلك السطر الاول مباشرة ، مكمل عبارته الاول تلك على الفور ، يقول : « ولا سبيل لنقله في هذا الفكر دون الاخذ بالمنهج العلمي الذي هو محصلة خبرات وممارسات طويلة في طرائق التفكير واساليب البحث من اجل الوصول الى الحقيقة ، حقيقة تفسير ماهية الانسان وظواهر الطبيعة » . . . وبصرف النظر عن ركافة التعبير ، فهو يريد في العبارة الاخيرة ان يقسول : الحقيقة التي تفسر ماهية . . الخ ، بصرف النظر عن هذه الركافة ، فان محمود اسماعيل ، في تصويره للحل الناجح لازمة المنهج ، التي هي « ازمة الفكر العربي المعاصر » ، وفي قوله ان « المنهج العلمي . . هو محصلة خبرات وممارسات طويلة في طرائق التفكير واساليب البحث » انما يقيم المنهج العلمي في الحقيقة على قدم واحدة ، وهي القدم الثانية ، التالية في تسلسل نشوء المنهج العلمي نفسه . القدم الاولى هي « المعلومات » . دون تكاثر المعلومات الى الحد الذي يصبح تصنيفها امرا ضروريا من اجل استخدامها بطريقة منظمة و « ايدولوجية » ، اي طبقا لتصور معين ، ما كان من الممكن اصلا ان ينشأ « علم » وبالتالي ما كان من الممكن ان ينشأ منهج علمي . وكان محمود اسماعيل على حق في قوله ان المنهج العلمي طبق اولا على العلوم الطبيعية . ولكن هذا كان جديرا بان يذكره بان اول اصحاب « المناهج الفكرية العلمية في التفكير والبحث » كانوا انفسهم من العلماء : جيوردانو برونو وكوبرنيكوس وجاليليو في القرنين الخامس عشر والسادس عشر (يضاف اليهم عسادة العالمان الرياضيسيان باراسيلوس وتيليزيو) ، ثم فرانسيس بيكون بين القرنين السادس عشر والسابع عشر . وان كمية « المعلومات » التي توافرت من خلال الجهد الدؤوب لمئات العلماء والرحالة والبحارة وغيرهم ، هي التي هيأت الفرصة في النهاية لبدء صياغة « المنهج المادي العلمي » على يدي توماس هوبز الذي صاغ نظريات يكون ودمجها مع افكار جاليليو وبرونو وتيليزيو فيما اصبح يعرف من بعد بالنزعة المادية الميكانيكية . المهم هنا هو ان « المعلومات » تلك التي يشكو محمود اسماعيل من عدم توافرها ، والتي يجتهد في انتاجها العلمي من اجل جمعها ونقدتها وتصنيفتها من التزييف بمسد البحث عنها في

يسلمنا هذا الى النقطة التالية التي تتضح اكثر لدى الدكتور محمود اسماعيل . يتفق مؤلف « الحركات السرية في الاسلام » و « قضايا في التاريخ الاسلامي » مع مؤلف « مشكلة الحرية الانسانية » في حرصه على البحث عن سند من مفكري الاسلام الاوائل او مؤرخيه ، يستند اليه لتبرير استخدام المنهج العلمي في تفسير التاريخ . وبينما نعتقد نحن ان العمل الدائب على اكتشاف « الحقيقة » التاريخية ، وتفسيرها باعتبارها ظاهرة موضوعية تفسيرا لا علاقة له باية عقيدة او تصورات مسبقة ، هو المقدمة الضرورية والمنطقية لاقامة العلاقة المحتملة بين الفلسفة العلمية وبين تراث الامة وعقلها)

(A) والجهد العملي الذي يبذله الزميلان محمد عمارة ومحمود اسماعيل بالذات يؤكد لنا صدق ما نعتقده وصوابه . راجع مثلا تحقيقات عمارة للاعمال الكاملة للادفاني ومحمد عبدة ورفاعة الطهطاوي، وراجع كتابي محمود اسماعيل المذكورين سابقا : الحركات السرية في الاسلام ، قضايا في التاريخ الاسلامي : ان الكشف عن « الحقيقة » الفعلية ، هو العمل الاساسي الجاد والمثمر للمؤرخ العلمي ، وهو اللبنة الاولى التي عليها يقيم تفسيره العلمي للتاريخ . ولكن ما هي « الحقيقة ؟ » .

لقد قرر القرآن نفسه هذه « الحقيقة » ، ولكننا نريد ان نعرف اصلها فحسب ، ففي معرفتها ، ومعرفة اشياء اخرى كثيرة مشابهة يمكن ان نبيّن الكثير من الحقائق وان نحسم الكثير من المشاكل المتعلقة بقدسية الثقافة العربية او عدم قدسيتها : انها ثقافة علوية ، منتزلة لم يخلقها البشر وان آمنوا بها ، ام انها ثقافة انسانية تاريخية ، تنتمي الى سلسلة بعينها من الحضارات التي تكون مجموعة حضارية واحدة ..؟ والمشكلة هنا في الحقيقة لا تتعلق بتأكيد ان « الكادحين » هم الذين شيّدوا لله بيتا في مكة ، او ان ابا الانبياء وولده هما اللذان شيّداه .. المشكلة هي ان « تعرف » الحقيقة . والحقيقة في النهاية بالتأكيد علمية . تقول كتب التاريخ العربي القديمة ، وكتب انساب العرب ، انه قد سكنت مكة قبل قريش جرم ، وانه سكنتها قبل جرم العماليق . فمن هي جرم ومن هم العماليق ؟ اوجدوا حقا ، ومن اين جاؤوا وماذا كانت لغتهم ودياناتهم وآدابهم ونظمهم الاجتماعية واعمالهم ، ام انهم احاديث خرافة نسجها الرواة واصلحوها وافتعلوا بها للامة تاريخا « غير تاريخها الحقيقي » ؟

يستند الرواة - ويتبعهم المؤرخون (١٠) في مثل هذا الحديث على « علم الانساب » العربي . فاذا ذكرنا ما كان للصرعات القبلية من تأثير مروع على التاريخ العربي (ولعل من انصح نتائج دراسة محمود اسماعيل عن « تراجيديا التحكيم » ، ترجيح خيانة الاشعث بن قيس الكندي اليمنى لعلي ، و اشارته « اللطيفة » على استحياء الى افتراء الرواية العراقية في هذا الصدد ، مما يوحي برغبة مؤرخي العراق في تبرئة الاشعث الذي كان قائدا للقبسية اليمينية المقيمين في العراق من اتباع علي ، وهم غالبية اتباعه في صفين) فان تصفية علم الانساب هذا ، وكشف ما علق به من زيف ، وتحديد الاصول الاثنوجرافية الحقيقية للقبائل العربية ، قد يكون ذا فائدة لا تقدر في كشف تكويناتها الاثنوبولوجية ومساراتها السياسية على ضوء تلك الاصول وهذه التكوينات (ففي هذه المراحل « القبيلة من التاريخ ، لا تنفصل الحقائق والنوافع الاقتصادية انفسالا كبيرا عن الجوانب الاخرى من الحقيقة الاجتماعية : وليقرأ من يشاء - او ليعد قراءة انجاز في اصل الاسرة والملكية الخاصة والدولة ، اذا كان ممن يفضلون الكلاسيكيات على منجزات علم التاريخ والاجتماع العلمي الحديثة) .

مرة اخرى ازمع انه ليس من السليم - علميا ولا سياسيا - ان نستسلم لبداهات صبيان الجبل والخرافة والتعصب الاعمى والاعتماد على نقل الصنعة ، فنذهب لكي نلتبس لانفسنا في التراث مبررا لعلميتنا : علميتنا تثبت بان ننظر الى التراث نظرة علمية . وذلك - في تصوري - يكون بان نقوم نحن بتجميع المعلومات ، وباتسباب القدرة على تقبل « التراث » كله باعتباره حقيقة واقعة ، تتطلب ان تعرف ، ثم تتطلب ان تفسر على ضوء موقف نقدي موضوعي وعقلي صارم ، بصرف النظر عن احتياجات الموقف السياسي او النظرة الايدولوجية . هكذا تستطيع الفلسفة العلمية ان تصبح هي الاخرى جزءا حقيقيا من التراث نفسه ، وتصبح - اكثر من ذلك - تاجه ونوره وعينه المبصرة .

القاهرة

مطابها الحقيقية ، (والتي نرجو الا تكون شكواه تلك مجرد شكوى مؤرخ محترف ، وانما شكوى عارف باهمية « المعلومات » الحقيقية للباحث عن الحقيقة) ، اقول ان المهم هنا هو ان « المعلومات » هي المطلق الضروري الاول لنشأة العلم والنهج العلمي في وقت واحد .

اما « الخبرات والممارسات الطويلة في طرائق التفكير واساليب البحث » فهي النتيجة او المحصلة النهائية لقدرة العالم على الاعتراف بالحقيقة ، او بان « كل » ما تضمنه الواقع انما هو جزء من تاريخه ، وان المشكلة هي « تفسير » احتواء الواقع لكل تلك الظواهر او جزئيات الظواهر . ببساطة اقول ، طالما نحن نتحدث عن « اعادة قراءة التاريخ الاسلامي » ، ان المؤرخ العلمي حقا ، والذي يجمع كل ما يمكن جمعه من « معلومات » عن هذا التاريخ ، لا بد ان ينطلق من ان « كل » ما احتواه هذا التاريخ كان اجزاء حقيقية من التاريخ نفسه ، وان المشكلة هي « تفسير » وجود كل هذه الاجزاء ، سواء كانت حقائق فعلية حدثت في عالم الحركة والمادة الخارجي ، ام كانت « اوهاما » واساطير وخرافات ، سطرها المؤرخون باعتبارها الحقائق ، او زيّفوها لكي يعطوا للحقائق الفعلية معاني ايدولوجية محددة . لقد نسب ابن ابي الحديد للاسكافي ما نسبته في « شرح نهج البلاغة » . قد نصل الى استنتاج يؤمن بصحته يقول : ان الاسكافي لم يقل حقا ما نسب اليه . بذلك يفقد ما اورده ابن ابي الحديد نصف صدقه . ولكن من الثابت ان ابن ابي الحديد « قد اورده » فالمشكلة اذن هي البحث عن سبب هذا التزييف ، وكيفية صنعه ، والابسات التي احاطت بعملية التزييف هذه ومشابهاها مما صنعه الشيعة او السنة او المعتزلة او « المؤرخة للملوك » او الخوارج .. الخ .. الخ . يقول الطبري ان فرعون موسى اسمه « الوليد بن الريان » وان « البرابي » التي في « بر الجيزة » كانت لتمجيد آلهة مصر في ذلك الزمان ، وان اول من سكن مصر هو مصرايم بن يافت بن نوح (ونقل عنه كل هذا الهراء مؤرخون آخرون ، على رأسهم السعودي والقريزي (٩)) . وانا لا اعرف على وجه اليقين من اين جاء الطبري بهرائه هذا ، ولكن لا شك في ان هذا الكلام هراء لا يمت الى حقيقة تاريخ مصر واثارها وسكانها باي صلة ، ولا شك ايضا في ان الطبري والسعودي والقريزي قد قالوه . وفي ظني ان مسألة البرهنة على ان هذا الكلام هراء ، ايسر بكثير ، بكثير جدا واقل اهمية ، من مسألة البحث عن « مصدر » هذا الكلام ، والسبب في ان مؤرخا من كبار مفسري القرآن ايضا ومن كبار رواة الحديث قد استسلم لهذا الهراء وردده على انه « الحقيقة » . ولندكر ان علمي التفسير والحديث يكادان ان يكونا من اكثر العلوم الاسلامية اقترايا في روحها ومناهجها من روح العلم التجريبي والعقلي الحديث ومناهجه ، وانهما يكادان ان يكونا علمين عربيين خالصين في مناهجهما ووسائل بحثهما . فلماذا كسان الطبري « علميا » تقريبا في بعض ميادين عمله ، ولم يكن كذلك في ميدان اخر او في جزء من هذا الميدان ؟ في اعتقادي ان « تفسير » هذه الظاهرة بالاجابة على مثل تلك الاسئلة هي المهمة الاولى الحقيقية للمؤرخ العلمي الذي يريد ان يعيد قراءة تاريخنا الاسلامي . هناك مثلا التساؤل عن الاصل الحقيقي لفكرة « دين ابراهيم الحنيف » . التوراة صريحة في نسبة ابراهيم الى اليهودية باعتباره عبرانيا . فمن اين جاءت

(٩) راجع الطبري ، تاريخ الامم والملوك ، المجلد الاول ، الجزء

الاول ص ٤٦ . وما بعدها ، طبعة المطبعة الحسينية بالقاهرة ،

دون تاريخ . - وراجع ، السعودي ، مروج الذهب ص ٢٦٢ و ٢٦٤

طبعة دار التحرير ، وراجع : خطط القريزي ، ج ١ ، ص ١٧ ، ص ٢٠ ،

طبعة التحرير نقلا لطبعة بولاق ، القاهرة .